دفاتر إنسانيات عدد 2، 2010، ص.ص. 41-53

التاريخ و الذاكرة : الإسطوريوغرافية الاستعمارية*

فؤاد صوفي**

إن تاريخ الحركات الفكرية في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية لم يكتب بعد مثله مثل تاريخ الإسطوريوغرافية وتاريخ الإنتاج الإسطوريوغرافي – الذي يتجاوز المحاكمات الصغيرة – و كذلك هو الأمر بالنسبة إلى تاريخ الحقول الأخرى مثل علم الاجتماع، والجغرافيا، والإثنولوجيا، والحقوق ... إلخ.

إنَنا مدينون للكثير من المؤرخين ومن بينهم جون كلود فاتان (Jean-Claude Vatin) في أولى محاولات كتابة التأريخ الاستعماري بصفة خاصة و الإنتاج الفكري بصفة عامة[1]. إذ يوضح فرانسوا ليمدورفير (François Leimdorfer) في إحدى مقالاته التي نشرها بعد تقديمه لأطروحته الموسومة بـ "الخطاب الأكاديمي و الاستعمار"[2]، "مواضيع السوسيولوجيا الاستعمارية"[3]. ومن جهتها، كانت فاني كولونا (Fanny Colonna) قد طرحت جملة من التساؤلات حول العلم الاستعماري من خلال نموذجي كل من أوغستين بيرك (Augustin Berque) و جوزيف ديسبارميه (Joseph Desparmet)[4]، كما أن أني ري – غود زيقر (Annie Rey – Godzeiguer) كانت قد قدمت بيانا حول علاقة المؤرخين بالجزائر في عهد الإمبراطورية الثانية[5].

وفي الأخير، لا بد من الإشارة إلى المقال القصير لـبشير شنيتي الذي يطرح، على الأقل، مشكلا ذا طابع إبستيمولوجي : "التاريخ القديم للجزائر من خلال المصادر الفرنسية"[6].

---

*صدر هذا المقال باللغة الفرنسية في مجلة إنسانيات، العدد 03، شتاء 1997.

** مفتش في التراث،باحث مشارك بالمركز الوطني للبحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران.

[1] *L'Algérie politique. Histoire et société*, Paris, PFNSP, 1974 ; puis avec LUCAS, Ph., *L'Algérie des anthropologues*, Paris, Maspéro, 1975 ; et ses articles dans la *Revue algérienne* 1970 et 1974 (avec A. MAHIOU), La *Revue de l'Occident Musulman* (1982) et l'*Annuaire de l'Afrique du Nord* (1979).

[2] Leimdorfer, François, *Discours académique et colonisation. Thème de recherche sur l'Algérie pendant la période coloniale*. (Le corpus des thèses de droit et lettres. 1880-1962), Paris, Publisud, 1992.

[3] Leimdorfer, François, « Objets de la sociologie coloniale. L'exemple algérien », in *Tiers-Monde*, n° 90, 1982.

[4] Colonna, Fanny, « Production scientifique et position dans le champ intellectuel et politique. Deux cas : Augustin Berque et Joseph Despermet », in *le mal de voir*, Paris, UGE, 1976, Coll. 10/18.

[5] Rey-Godzeiguer, Annie, « Les historiens du Second Empire et l'Algérie », in *revue d'Histoire Moderne et Contemporaine*.

[6] Cheniti, Béchir, « Les sources françaises de l'histoire de l'Algérie romaine », in *Madellat Tarikh*.

لقد تم بناء ماضي الجزائر أثناء الاستعمار تدريجيا، و في الوقت نفسه تم إرساء وسائل الحفاظ عليه كالمتاحف و النصب التذكارية، كما تمخض عن استقبال عدد من المؤتمرات العلمية نوع من الرضى عن الذات في الجزائر العاصمة بالتحديد و كذلك في وهران، تلمسان و قسنطينة.

بناء ماض معين

لقد طرحت الإسطوريوغرافية منذ بداياتها الأسئلة نفسها التي يلخصها ستيفان جيزال (Stephane Gsell) فيما يلي: "ما هي أصول هؤلاء السكان ؟ كيف تشكلت تقاليدهم، ومؤسساتهم، ومعتقداتهم؟ ما هي العبر التي يمكن أن يقدمها لنا الاحتلال و الاستعمار الروماني ؟"[7]. فبالنسبة لجيزال، مهمة التاريخ في الجزائر ووظيفته الاجتماعية واضحة : "لقد سطر لنا التاريخ أيضا واجباتنا، وإرادتنا صارمة في أن نكون قادة في كل مكان و زمان، بالإضافة إلى ضرورة وجود استعمار تدعمه نسبة كبيرة من السكان الريفيين الأوربيين، و هي ضرورة لا تقل أهمية في تقريب الرعايا (الأنديجان) إلينا مع الرغبة القوية والأمل في الانصهار في المستقبل، قريبا كان أو بعيدا. و لا يعد هذا التاريخ في إفريقيا " عديم الفائدة ضمن العلوم"[8].

ومن ثمة، تم وبشكل منتظم، نشر قوائم جرد متعددة، مذكرات، عروض لمواقف و دعاية موقعة من قبل أكبر المختصين. و الجميع، بطبيعة الحال، كان مطبوعا بآثار عصره. هكذا تم تسجيل المعرفة الاستعمارية حول الجزائر و المغرب.

إذا كانت الببليوغرافيا المحلية الأولى صادرة عن "جدول المؤسسات الفرنسية"[9](Tableau des établissements français) سنة 1838، فإن أول إصدار دوري "الموجه الجزائري" (le Moniteur Algérien) هو الذي قام بدعم أولى الأعمال المنجزة في حقل التاريخ و ذلك بفضل أدريان بربروغار (Adrien Berbrugger) و رولان دي بيزي (Roland de Bussy). و كون الفترة العثمانية كانت الأكثر قربا من الحاضر، فقد تم استعراضها بشكل أفضل. كما عرفت المواضيع تنوعا كبيرا في الفترة الممتدة بين 1836 و 1855 من خلال مقالات رولان دي بيزي، ألفونس دي روسو (Alphonse De Rousseau) هنري فويلارت (Henri Feuilleret)، أستاذ التاريخ، أوسيب دي سال[10] (Eusèbe De Salles)، ليون روش (Léon Roches) و الدكتور قييون (Guyon) : كتاب عبد القادر ويوغرطه (1844)، الانكشاريون (1838)، محمد المتافيزيقي الكاتب و الاشتراكي (1845)، عمر باشا (1843) و غيرهم. وقد تم أيضا نشر أولى ترجمات الوثائق و المخطوطات : "التحفة المرضية" التي قام

[7] Gsell, Stéphane, *Introduction... Histoire et Historiens de l'Algérie*, Paris, Alcan, 1931.

[8] المرجع نفسه.

[9] يشير ش. تيلار في مؤلفه "محاولات في الببليوغرافيا..." بباريس سنة 1839 إلى صدور "قائمة ببليوغرافية بأسماء المؤلفين الذي كتبوا حول شمال إفريقيا منذ غزو العرب لهذه البلاد" و التي يعود الفضل في كتابتها إلى جيلبار المعنونة بـ "حول استعمار شمال إفريقيا".

[10] ينظر حول هذه الشخصية الدراسة التي قام بها جوليان ش. في *المجلة الإفريقية*، المجلد 65 (1925) و 66 (1966).

بترجمتها روسو سنة 1845، و "دفتر التشريفات" الذي قام بترجمته دو فولكس (Albert Devoulx) سنة 1852.

و يعود الفضل في أول حوصلة للمعارف حول الجزائر غداة الاحتلال إلى جانتي دي بيزي (Genty De Bussy)، الذي كان ثاني إداري معتمد لمدينة الجزائر من ماي 1832 إلى جويلية 1834. نشر هذا المؤلف، من جزئين، في باريس سنة 1835، تحت عنوان: "حول استيطان الفرنسيين بإيالة مدينة الجزائر ووسائل الحفاظ على رخائها". و إذا كانت الملاحق تتضمن العديد من الوثائق، فإن الجانب البيبليوغرافي تم اختزاله في أسماء ستة مؤلفين فقط.

و لقد نالت الجزائر اهتمام الكثير من الكتاب المتمرسين و غيرهم، من الهواة المستنيرين و المؤرخين. مثلا، تحتوي "البيبليوغرافيا المنهجية" لشارل تايلر[11] (Charles Taillart) على جرد لـ 3177 عنوان مرجع و مقال أدبي و تاريخي.

يتمثل العمل الأكثر أهمية سواء من خلال طموح المشروع أو من خلال النتائج المتحصل عليها – و التي نشرت – في كتاب "الاستكشاف العلمي للجزائر". إن مغامرة "الاستكشاف العلمي للجزائر" لم تشكل يوما موضوع دراسة شاملة[12]. تتكون هذه المغامرة التأليفية، المقررة من طرف وزارة الحربية سنة 1837، و التي اعتبرت غير مكتملة بعد، من واحد و ثلاثين جزءا كتب بين 1844 و1854، حيث يتناول ستة عشر جزءا منها العلوم التاريخية والجغرافية. من ثمة، ترسخت معرفة جديدة، و لربما أكثر من ذلك شبكة قراءة لماضي الجزائر. وهكذا قام كاريت (Carette) مثلا بلفت الانتباه إلى دور بني هلال و القطيعة التي اجتهد خلفاؤه في تبيانها في القرن الحادي عشر ميلادي.

إن الفترة العثمانية هي أول فترة تمت دراستها، فقد أصدر سنة 1837 كل من سوندر رانج (Sander-Rang) و فارديناند دنيس (Ferdinand Denis) كتاب "تأسيس الإيالة"، كما ألف الجنرال والسين إزتيرازي (Walsin-Estherazy) سنة 1840 مؤلفا حول "الهيمنة التركية على الإيالة القديمة لمدينة الجزائر". و قد نشر البارون بود (Baude)، الذي كان مفوضا من الملك، سنة 1841 كتاب "الجزائر" في جزئين، و كان يرمي من خلاله إلى وصف الأشياء التي رآها "مع التذكير في بعض الأحيان بالشكل الذي كانت عليه في قديما".

وفي هذه السنة نفسها ، أي في عام 1841، أصدر ليون غليبار (Léon Galibert) الطبعة الأولى من كتابه "الجزائر القديمة و الحديثة منذ الإستيطان الأول للقرطاجيين حتى...". "إنها عشر سنوات

---

[11] Taillart, Charles, *L'Algérie dans la littérature française. Essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924*, Paris, Champion, 1925.

يمثل هذا الكتاب مجموعة ببليوغرافية لمؤلف آخر يحمل نفس العنوان و ظهر في نفس السنة. المؤلف يعترف بدينه، خاصة، اتجاه بلايفير A bibliography of « Algeria : Playfair »، لندن 1898-1988. كما أنه قام بجرد 18 مجلة ظهرت في فرنسا و المجلات المحلية الأربع، و لكنه لم يقم يرجع إلى مجلة "الموجه الجزائري"

[12] Cf. Mercier, Gustave, « L'exploration scientifique de l'Algérie », in *Initiation à l'Algérie*, Paris, A. Maisonneuve, 1957, pp.325-343.

في الحقيقة لقد خصصت الصفحتان الأوليتان فقط لهذه الإصدارات.

Vatin, J.CL, « Science historique et conscience historiographique de l'Algérie coloniale ». I. 1840-1962, *Annuaire de l'Afrique du Nord*, vol. 18, 1979.

من النجاح"، كتب غليبار، "يتضح ذلك من خلال الطبعات العديدة التي نفذت بمجرد نشرها".
و قد اكتملت تلك الطبعات غير المؤرخة سنة 1853. إن هذا المؤلف مميز نظرا لشكله: 22 فصلا، فصل خاص بكل فترة هيمنة، مع فصلين للهيمنة التركية و 12 فصلا للهيمنة الفرنسية (إلى غاية ولاية روندون (Randon)). في الواقع، نشهد مع هذا الكتاب تأسيس لتحقيب تاريخي لم يعد النظر فيه إطلاقا. ولا في هذه المعرفة التاريخية المتشكلة،حيث تبرز كلمة مفتاحية تتمثل في : الهيمنة.
و انطلاقا من هنا لم يعد تاريخ الجزائر إلا تاريخا لأشكال الهيمنة التي تعاقبت عليها.

يخبرنا أ.برنارد (A. Bernard) أن المؤلَف الشامل حول الجزائر، (الشامل بمعنى يشمل الجغرافيا و التاريخ) هو مؤلَف موريس وال (Maurice Wahl) الذي صدر في خمس طبعات منذ 1882. و قد أعاد أ.برنارد كتابته و صياغته من جديد سنة 1929 تحت عنوان قصير: "الجزائر"، علما أن كتابة الحوصلة التاريخية الأولى يعود الفضل فيها إلى رئيس بلدية قسنطينة إرنست مرسييه (Ernest Mercier)، وقد أصدر مجلدين حول "تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى غاية الغزو الفرنسي" بباريس بين سنتي 1888-1890، اللذين شكلا و لفترة طويلة المرجعية (إلى غاية صدور كتاب "تاريخ شمال إفريقيا" لشارل أندري جوليان (Charles-André Julien) سنة 1931).

وفي الواقع، فإن "الوجيز في تاريخ الجزائر" لمؤلفه إدوارد كات (Edouard Cat)، الذي كان حينذاك أستاذا في مدرسة الآداب بالجزائر، لم يتمكن من تعويض كتاب الـ "مرسييه" (Mercier)، إدوارد كات الذي أنجز، سنة 1891، أطروحة دكتوراه رئيسية حول "مآثر شارل كوينت (Charles-Quint) في إفريقيا"، وأطروحة ثانوية تحت عنوان "محاولة حول المقاطعة الرومانية لموريتانيا القيصرية"، واشتهر هذا المؤلف أكثر بسجاله مع كامي روسات (Camille Rousset) (سنة 1885 في "نشرة المراسلات الإفريقية") و بمقالاته المنشورة في جريدته "الجزائر" أكثر من اشتهاره ببحوثه.

و تجدر الإشارة غلى أن رجال القانون قد شاركوا في هذه الحركة أيضا. ومن مدينة بواتييه (Poitiers)استعاد أ. جيرولت (A. Girault)، في كتابه "مبادئ الاستعمار و التشريع الاستعماري" (1895)، التصور "المعياري" الذي أصبح شائعا: أي ما قبل و ما بعد 1830.

يعود الفضل إلى أطروحة جورج مارسي(Géorges Marçais) في إحداث ثاني أكبر انعطاف للإسطوريوغرافية الاستعمارية: إذ أنه مع قدوم بني هلال، حدث أكبر تحول سياسي، إثني، ثقافي و اجتماعي لم يشهده المغرب الكبير أبدًا من قبل حيث يمكن إدراج القرن الحادي عشر ميلادي في التاريخ بوصفه قطيعة أساسية[13] .

إن تشكيل ووضع معرفة كلية و محلية **لتاريخ** الجزائر و المغرب الكبير معًا هو في الوقت ذاته استمرار منطقي: تشكيل و وضع ذاكرة استعمارية للجزائر و المغرب الكبير. فالذاكرة و التاريخ يسيران معا، حيث يثري أحدهما الآخر، كما تتكفل بهما أجيال المؤرخين ذاتهم.

[13] Marcais, Géorges, *Les arabes en Bergerie du XIe au XIVe siècle*, Recueil des notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine, 1913.

الطلب على الذاكرة

إن كتاب "تاريخ الجزائر عبر معالمها"[14]، و الذي نشر في باريس سنة 1900، حتى و إن لم يكن المؤلف الأول من نوعه، فإنه يشكل مرحلة جديدة في صناعة الذاكرة الاستعمارية للجزائر مستعيدا لحسابه وبسخاء الأعمال التاريخية،بين مقالين لرؤساء مكاتب في الحكومة العامة، مؤرخون (إدوارد كان Edouard Cat، روني باسات René Basset) و جغرافيون (أوغسين برنارد Augustin Bernard) معروفون، كانوا على علاقة بكتاب تناساهم الزمن اليوم (مثل جون لوران Jean Lorrain الملقب بـ بول ديفال Paul Deval).

لقد بدأ شكل جديد في الظهور(؟) لنقل المعرفة الجامعية (؟) العلمية (؟). مؤلفات تبسيطية، ذات مستوى عال على كل حال، و أعمال علمية جماعية، وضعت في متناول الجمهور العريض. وكل هذه الوسائل من كان من شأنها المساهمة في وضع حوصلة (تم نعتها بالايجابية) للمنجزات الفرنسية في الجزائر.

إن كتابي "تاريخ و مؤرخي الجزائر" (1931) و "شمال إفريقيا الفرنسي في التاريخ" (1937 ثم 1955) هما نموذجان للببليوغرافيا النقدية، إذ يمثلان نقطة الإنطلاق في مسار الإنتاج و التطور الفكري.

و بطلب من ش. أندري جوليان، الذي كان آنذاك سكرتير المجلة التاريخية (Revue historique)، و في إطار الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، جمع كل من ستيفان جيزال و غبرييل إيسكار (Gabriel Esquer) خمسة عشر دراسة حول أعمال في التاريخ، والجغرافيا، وما قبل التاريخ، والإثنولوجيا، والتاريخ القديم، وتاريخ الأديان (ولكن دون أية دراسة حول اليهودية)، وتاريخ العصور الوسطى (التاريخ الإسلامي)، والتاريخ الحديث (الإسبان)، والاحتلال؛ و لكن أيضا الشريعة الإسلامية، الأدب، الفنون، الجامعة، و في الأخير المصادر حول الجزائر. لقد تم استدعاء كل أساتذة جامعة الجزائر "حسب رغبة جوليان" كما يوضحه جيزال في مقدمته. ريغاس (Reygasse)، ألبرتيني (Albertini) الذي هيمن على تدريس التاريخ القديم بعد مغادرة كركوبينو(Carcopino)، ويليام و جورج مارسي (William et Georges Marçais)، ألفريد بيل (Alfred Bel)، جورج إيفر (Georges Yver) الذي سيطر على فترة بداية الاستعمار و ما بعدها، موراند (Morand) الحقوقي الذي قنّن الشريعة الإسلامية، بيار مارتينو(Pierre Martino)، عميد الجامعة تيليار (Tailliart) و في الأخير مختص الأرشيف قابرييل إيسكار. لقد كلف أ. غوتييه (E.F.. Gautier) بالتقديم الجغرافي حيث استعرض في الوقت ذاته عبقريته و تمرده: لا شيء يمكن فهمه في الجزائر خارج "المجال الجغرافي". فالعبقرية و التمرد كانا بالكاد يخفيان لديه الأفكار المسبقة، الأحكام المتسرعة و الأسئلة التي لا أجوبة لها : لماذا هناك تقسيم سياسي عمودي اتجاه

[14] مؤلف جماعي ينسبه فاتان عن خطأ لـروني باسات لوحده.

البحر في حين تنقسم البلاد جغرافيا عبر ثلاثة شرائط موازية للبحر الأبيض المتوسط؟ كما كان ذلك مناسبة لظهور أستاذ شاب في ثانوية الجزائر و الاعتراف به إسمه: فارناند برودال (Fernand Braudel) الذي استقر في الجزائر سنة 1927 بعد قضائه فترة من الزمن بالقطاع القسنطيني. صحيح أنه كان هناك الكثير من الكتاب، و لكن من يتذكر إيلي بلان (Ely Blanc) و زيلر (Zeiller) ؟ من لا يزال يقرأ لحد الساعة موريس ريغاس؟ و ما هو مصير أطروحات غوتييه ؟ أو لم يبق من ألبرتيني سوى "ألواح الوندال" (Tablettes Vandales)؟

لقد عرف كتاب "شمال إفريقيا الفرنسي في التاريخ" إذن طبعتين. و من الطبعة الأولى إلى الطبعة الثانية نجد نفس المؤلفين، مع ملحق في الطبعة الثانية، يتضمن دراسة حول فترة 1940-1950. لقد كان هذا الكتاب أكثر إيجازا من المؤلَف الذي سبقه: أربع ثم خمس دراسات فقط. و كان أيضا بمثابة كتاب فن أو كتاب مجموعات فنية. لكن الملاحظ أنه من طبعة لأخرى، و رغم اختفاء اثنين من المؤلفين ألبرتيني و لسباس(Albertini et Lespès)، تغيرت عناوين الفصول – ونوايا الناشر؟–. لقد تم تكليف ريني لسباس (1870-1910)[15] بكتابة المقدمة الجغرافية بطريقة كلاسيكية للغاية و بعيدة بعض الشيء عن مبالغات غوتييه (Gautier) :إذ أصبح "شمال إفريقيا القديم" لألبرتيني "الفترة القديمة" و "شمال إفريقيا تحت الهيمنة الإسلامية" لجورج مارسي "الفترة الإسلامية" و "شمال إفريقيا الفرنسي" أصبح "الفترة الفرنسية". يمكن ألا يكون هذا الانزياح الدلالي مجانيا، و يمكن أن يكون ناتجا عن محاولة لتخليص التاريخ من ربقة العاطفة، فنحن هنا لم نعد نتموقع ضمن إطار **الهيمنة** بل في إطار **الفترة**.

التاريخ / الوصية

زاد نشاط الحركة في غضون الخمسينيات إذ ظهر إلى الوجود كتاب "صور من الجزائر" سنة 1953، و في سنة 1956 احتفلت جمعية المؤرخين الجزائريين بذكراها المئوية و قام جاك بيرك بوضع حصيلة **لمئة و عشريين عاما من السوسيولوجيا المغاربية** ؛ سنة 1957، نشر كتاب "**اكتشاف الجزائر**" و قام غ. إسكار (G. Esquer) بوضع حصيلة أخرى لقائمة أخرى تخص **الحياة الفكرية بالجزائر** منذ 1830.

يقع كتاب "صور من الجزائر" في إطار جد خاص يتمثل في سلسلة تتعلق بمقاطعات فرنسا، حيث يمثل العدد الرابع و الثلاثين منها. و قد قام غابريال إسكار بكتابة الفصل الخاص بالتاريخ، إذ تصور هذا الأخير أنه يجب كتابة ما يلي: "فيما يخص الاعتقاد بالاستقلال الذاتي لجزائر لا يمكنها ضمان الحاجة و الرزق لسكانها... فإن هذا مجرد وهم "[16]. وبشكل أكثر تواضعا، كتب

[15] ستون سنة من بعد، لا يزال يتم الرجوع و الإطلاع على أطروحته الجغرافية حول مدينة الجزائر (1930) وكتابه حول وهران (1938).

[16] *Visages de l'Algérie*, Paris, Horizons de France, 1953, p.9.

مؤلفو "**اكتشاف...**": "نحن لا ندعي أننا قلنا كل شيء و لكننا ندرك أننا تحدثنا بنزاهة حول معظم القضايا".

كتاب " **اكتشاف الجزائر**" مشروع قديم لكن تأخر تجسيده بسبب الحرب العالمية الثانية، وهو ينتظم حول ثلاثة أجزاء أساسية: "البيئة المادية" (الفصل الأول)، "ماضي الجزائر" (4)، "جزائر اليوم" (13). ومرة أخرى تم استدعاء الأساتذة الجامعيين المتقاعدين، حيث كتب مارسيل لرنود (Marcel Larnaude)، الصديق القديم لغوتييه، تقديما للبيئة المادية. أليس هناك جغرافيون بالجزائر؟ أكيد فالجغرافيا لا تصلح إلا للمقدمة.

أما عن ماضي الجزائر فقد قام بوصفه كل من كريستان كورتوا (Christian Courtois) (المتوفى سنة 1956) و ج. مارسي الذي غادر التعليم من أجل إدارة المتحف. ستيفان جيزال، مارسيل كولومب(Marcel Colombe) و بيار بويار(Pierre Boyer) الموظف في أرشيف مقاطعة الجزائر و لا تزال قائمة المساهمين طويلة. يمكننا أيضا ذكر الأخير من آل مارسي، فيليب، و هو مختص في اللسانيات و نائب منتخب في الجزائر الفرنسية؛ إميل درمنقهن (Emile Dermenghen) الذي خلفه إسكار في أرشيف الحكومة العامة (ح.ع.)، هنري بيراس (Henri Perès)، المستعرب و مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية، لوسيان غولفين (Lucien Golvin) بصفته رئيس مصلحة الحرف اليدوية في الحكومة العامة، غوستاف مارسي (المتوفي سنة 1953)، لويس ميليو(Louis Milliot)، متقاعد، و شابان آخران : سعد الدين بن شنب (أستاذ مساعد بكلية الآداب) و كزافيي ياكونو(Xavier Yacono) (وكان هذا الأخير آنذاك لا يزال أستاذا بالثانوية). وهو خليط غريب من ماض لا يريد أن يمضي و حاضر يحاول البحث عن مكانة له. للمرة الأولى، في هذا النوع من الإنتاج، توجه الدعوة لجزائري؛ و لكن للمرة الأولى أيضا، يتم الإشارة إلى الإنتاج الفكري باللغة العربية (من قبل بيراس). انفتاح متأخر يوحي إليه مؤلف "**خمسة و عشرون سنة من تاريخ الجزائر**" تم نشره سنة 1956 من قبل "المجلة الإفريقية" بمناسبة ذكرى تأسيسها المئوية. لقد تم وضع حصيلة حقيقية بالمناسبة إذ تم تكليف كل من ليونال بالو (Lionel Ballout) (بالنسبة لفترة ما قبل التاريخ) وجون لاسوس (Jean Lassus) (العصور القديمة)، روجير لوتورنو(Roger Le Tourneau) (العصر الوسيط و الأزمنة الحديثة) وكزافيي يا كونو (فترة ما بعد 1830). و لأول مرة، ينفتح عمل ببليوغرافي (باستثناء تاليير (Tailliart)) على المسلمين واليهود الذين ظهروا بوصفهم فاعلين و منتجين لتاريخ بلادهم وبالنسبة للفترة القديمة، نجد أن لاسوس يحيل إلى كتاب حول "اليهودية البربرية في إفريقيا القديمة"، كما يذكر لوتورنو (Le Tourneau) مقالات و أطروحة حاج صادوق، ياكونو (Yacono)، بالنسبة للفترة الحديثة و المعاصرة، و يشير إلى قداش (كتاب "القصبة") و صالحي (كتاب "عبد القادر")، و كذا إلى أنسكي (Ansky)، وشوراقيو وإيزنبيث (Eisenbeth) حول يهود الجزائر وشمال إفريقيا. وأخيرا، وفي هذا العدد و بفضل دراسة قام بها س. بن شنب، دخلت أسماء كل من الحفناوي، ميلي و المدني إلى التاريخ الفكري[17].

[17] لقد انتقد ديسبارمي في "نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية" سنة 1933 بشدة مولد تاريخ وطني على يد كل من الميلي و المدني. كما لم يثر كتاب محمد صوالح : *L'Islam et l'Evolution de la culture arabe*, Alger, Soubirou, 1935 أي نقاش.

و دائما في سنة 1957، وفي مجلة "**سيمون**"، يعطي غابرييل إسكار(Gabriel Esquer)، و هو أرشيفي متقاعد والسكرتير العام السابق للجمعية التاريخية الجزائرية، نظرة شاملة، من خلال ذكرياته الشخصية، عما يمكن اعتباره بالحياة الفكرية في الجزائر في الفترة الممتدة بين سنة 1830 و 1956و هي حياة فكرية غاب عنها تقريبا كل الجزائريين باستثناء محمد بن شنب الذي لا يمكن تناسيه (المتوفي سنة 1924).

وتمثلت الحوصلة الأخيرة في كتاب"**تاريخ الجزائر**" الصادر في سلسلة "ماذا أعرف؟" (Que Sais-je ?) لإيسكار (Esquer) و ذلك للمرة الأولى سنة 1950 و قد كان سنة 1960 في طبعته الثالثة.

حدث كل هذا و كأن هذه الحوصلات المرحلية هي في النهاية حوصلات أو وصايا لمعرفة تشكلت طيلة قرن من الزمن يراد تكوين ماضي لنفسه.

و لم يقم غوتييه (Gautier)، برنارد (Bernard)، ميليوت (Milliot)، لارشار (Larcher) والآخرون، كات(Cat)، ماسكورى (Masqueray)، باسات (Basset) الأب و الأبناء، مارسي (Marçais) و أخوه، إيفر (Yver)، هاردي (Hardy)، مونيي (Maunier)، بوسكي (Bousquet) وغيرهم بوضع معارف و إنتاج أدوات لفهم مجتمع قيد الدراسة فحسب، بل إنهم قاموا تقريبا بوضع معايير (معايير بذاتها؟) أو قواعد لقراءة الأحداث و الوقائع السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية و الثقافية لتاريخ الجزائر.

و قد ظهرت آنذاك الدراسات الأولى التي قامت بدعم المقاربة الجديدة لتاريخ و سوسيولوجيا الجزائر، و التي بدأها ش. أندري جوليان (André Julien) سنة 1931، بيار بورديو (Pierre Bourdieu) سنة 1958، أندري نوشيه (André Nouschi) سنة 1960، و رونيه غاليسو (René Gallissot) سنة 1962. لقد بينت بعض التحفظات التي صاغتها جريدة "**المجاهد**" تجاه كتاب أندري نوشيه أن هذا الكتاب قد أثار انتباه مسؤولي جبهة التحرير الوطني (F.L.N).

لقد فككت أعمال كل من جوليان(Julien)، إمريت(Emerit)، أوغسطين(Augustin) و جاك بيرك (Jacques Berque)، دراش (Dresh) و فيما بعد أجيرون (Ageron)، رى– غولد زيغر-(Rey Goldzeiguer)، نوشيه (Nouschi)، لاكوست (Lacoste)، برونان (Prenant)، كل أعمال أسلافهم وعلى الرغم من ذلك، فقد طبعت بشكل أقل، الوعي التاريخي بالأمس واليوم في الجزائر، بالأمس واليوم. لم يعرف كتاب "تاريخ شمال إفريقيا" لـ ش.أ.جوليان النجاح في عالم النشر مثلما عرفته كتب "القرون المظلمة" لغوتييه أو"**حضارة العرب**" لمؤلفه غوستاف لوبون، حيث كانا موضوعا للقراءة و للنقاش عند عدد من إطارات الحركة الوطنية و مناضليها، كما حظي كتاب "**شمال إفريقيا في مسيرة**" الصادر سنة 1952 بمساندة و دعم جريدة "الجمهورية الجزائرية"[18] التي كان يشرف

[18] كان هناك عمل جبار لا بد من القيام به على مستوى صحافة الحركة الوطنية و كتب التارخ. هكذا كتب مصطفاي الهادي بخصوص كتاب "ش.أ.جوليان" : "لا اعلم طبيعة الاستقبال الذي سيحظى به لدى القارئ الفرنسي. أما في الجزائر فمصيره مقضي. لقد أفرغت منه المكتبات، و الصحافة لم توليه أية أهمية"، جريدة **الجمهورية الجزائرية** بتاريخ 13 مارس 1953. و في العدد

عليها فرحات عباس.بعد الاستقلال، تم نشر هذه الكتب الأربعة من جديد ليعاد بيعها في الجزائر، أما كتاب "لاكوست – نوشي – برونان" ("**الجزائر، ماضيا و حاضرا**")، و الذي استقبلته جريدة "المجاهد" بتعاطف كبير، فقد اختفى من المكتبات.

و كما هو الأمر في أي عمل، قد لا يكون جماعيا بشكل كلي ولكن التضامن بين الذين يقومون به هو حقيقي و قوي، إذ تطورت الأقدار الفردية للأشخاص الذين أثروا في الحياة الفكرية الاستعمارية، سواء بالتضامن أو بالتعارض أحيانا مع الآخرين.

ويفرض بعضهم نفسه في الذاكرة الجماعية، بينما ليس الآخرين سوى مراجع ببليوغرافية. فعندما تم تمجيد غوتييه، تم نسيان جورج إيفر؛ و عندما أملى ميليو قواعده في نهاية حياته، ظل مونييه مجهولا بشكل كبير كما ظل عمل إميل لارشار مغمورا عن قصد.

لا تقر الإدارة الاستعمارية بالفضل بشكل متساو: لقد احتل العساكر فضاء التسميات بشكل واسع.كما يمكننا ملاحظة أنه تم تسمية القرى الاستعمارية بأسماء الأوفياء من الذين خدموها مثل دومنييك لوسياني(Dominique – Luciani)، وارنيي (Warnier)... و لكن العسكريين، أيا كانت رتبهم، كانوا الأغلبية، من العريف لافايسيار (Lavayssier) إلى المارشال ماك ماهون (Mac Mahon)... لقد تم توزيع الأسماء على الشوارع بشكل سخي. بالمقابل، كيف يمكن تأويل عملية تسمية الثانويات و المدارس بأسماء مؤرخين – و هم مؤرخون كان لهم حظ الوفاة مبكرا، قبل 1940 – من بينهم غوتييه (Gautier)، ألبرتيني (Albertini)، جيزال (Gsell)، دو سلان (De Slane) وبأسماء عسكريين: بيجو (Bugeaud)، لامورسيار (Lamorciere)، دومال (D'aumale)، لابرين (Laperrine).

الفرع الآخر: رجال و مؤسسات

إلى جانب الجامعة و لكن رفقتها، فإن المكلفين بتسيير الآثار المادية المرتبطة بالماضي، المحافظون على الذاكرة التاريخية، الأرشيفيون، علماء الآثار، أمناء المكتبات و المتاحف، كلهم حاولوا القيام بتحديد أفضل لدورهم في المجتمع. أضف إلى ذلك أن دراسة الحقل الفكري، بالأمس و لكن بدرجة أقل من اليوم، لا تقتصر فقط على جامعة الجزائر و التي كان أغلبية أساتذتها، المشهورين منهم أو لا، على علاقة مع الحكومة العامة، من ماسكوري إلى بورديو، معززين مكرمين. لقد وجدت إذن أماكن أخرى لإنتاج المعرفة و المعايير.

ومع ذلك و على الرغم من أن أمناء المكتبات كانوا في اتصال أكبر مع القراء و الجامعيين، فإنهم لم يتركوا للمفارقة أثرا في الذاكرة الجماعية، إذ أن أسماءهم لم تذكر إلا قليلا إن لم نقل أنها لم تذكر أبدًا. و قد قام أدريان بربريقجر (Adrien Berbrugger) (1801-1869) بتأسيس أول مكتبة استعمارية بمدينة الجزائر، مع تدمير العديد من المكتبات من بينها مكتبة تلمسان، معسكر

التالي يمكننا أن نقرأ: " كتابه الشجاع والصادق لم يسلم من إقصاء أحبار السلطة". فبالنسبة لمالك بن نبي، يعد جوليان "مؤرخا بارزا ودقيق" (نفس المرجع بتاريخ 15 ماي 1953) ."يباع هذا الكتاب في 37 طريق دي شارت. 345 ف."

وقسنطينة، و لكنه عرف أكثر من خلال مشاركته في حياة "المجلة الإفريقية". صحيح أنه من الصعب إبقاء هذه الشخصية، غير العادية، خارج العوالم الصغيرة و الضيقة للمكتبات، فقد جرب كل شيء وشغل حتى منصب عقيد في مليشيات مدينة الجزائر، كما أنه فرض رأيه في "المجلة الإفريقية". من باب الطرافة، نشير أنه كان متزوجا بسيدة تدعى زهور محمد الوالي حسب شهادة وفاته. و قد كان لويس باولي (Louis Paoli) المشرف على المكتبة الجامعية متعاونا بخاصة مع "**المجلة الجزائرية... للتشريع و الأحكام**" و ذلك في مطلع القرن، كما أنه كافح بشدة إلى جانب إميل لارشار (Emile Larcher) و إدوارد كات(Edouard Cat) في قضية التجنيس التلقائي للأجانب. في الأخير، ماذا عن جان ألكي (Jeanne Alquier) الذي جاءت من قسنطينة بعد وفاة زوجها، مسؤول أرشيف مدينة قسنطينة و جرمان لوبال (Germaine Lebel) الذي حل محل إسكار في المكتبة الوطنية؟

إن عملية التأريخ للأرشيف الاستعماري و لعلم الآثار، و التي يفترض دوما القيام بها، تحيل إلى الاعتقاد بحدوث مخاض عسير.

لقد وجد أرشيف ولاية الجزائر مرميا بشوارع المدينة. وكان قد أكد الخزنجي عدم وجود وثائق إدارية كما أشار إليه إسكار بسخرية. فهذا الأرشيف، و الذي وجد بالفعل، فقد تم جمع ما أمكن إنقاذه من التلف ووضع على مستوى مديرية أملاك الدولة. و لكن الأرشيف لم يكن من أولويات الإدارة الاستعمارية. ففي سنة 1871، تم العثور على الأرشيف في أحد طرقات القصبة معروضا للبيع. و كان لابد من انتظار سنة 1908 حتى يقوم الحاكم جونارت (Jonnart)، في إصلاحه لهذه الإدارة، بإنشاء أول مصلحة. من ضمن هؤلاء الأرشيفيين : ألبرت دفولكس (Albert Devoulx) (المتوفى سنة 1876) الذي كان أول من قام باستثمار و دراسة أرشيف ولاية الجزائر، إيلي دى لا بريمودي (Elie de la Primaudie) (1814-1876)، و في وقت لاحق غابريال إسكار (1876-1961) الذي، بالإضافة إلى إدارة المكتبة الوطنية، قام بتنظيم أرشيف الحكومة العامة، إميل درمنغن (Emile Dermenghen) الذي خلفه في الأرشيف، ألكسندر بستمالجوغلو (Alexandre Pestemaldjoglou) و روبرت تنتوان (Robert Tinthoin) في وهران، بروسبار ألكيي(Prosper Alquier) (1890-1931) في قسنطينة، و خلفه أندرى بارتيي (André Berthier)، و الذي كان مدير متحف مارسي و مختصا في الآثار أكثر من كونه مختصا في الأرشيف حتى سنة 1973، بيار بوييز(Pierre Boyer) في مدينة الجزائر حتى سنة 1962 و جانين بورداس (Jeanine Bordas) ثم الزوجان إيف و مادلين رينودان (Yves et Madeleine Renaudin) في وهران حتى سنة 1962 أيضا.

لقد عانت الآثار القديمة كلها من السرقة و التخريب، و حتى تلك التي كانت مفقودة و كان يجري البحث عنها وبخاصة تلك التي تنتمي للفترة الرومانية. و قد أشار فيرود (Feraud)، في مقاله حول مدينة بجاية، أنه في 1849 كان يمكن رؤية أنقاض حصون زيانية في المنطقة. و يشير ديهل (Diehl) في كتابه المعنون بـ "اكتشافات علم الآثار الفرنسي في الجزائر و تونس" (1892) إلى "عدم اكتراث السلطات العمومية ، حتى لا نقول أكثر، بالحفاظ و استكشاف الآثار". كما أنه يذكر

وقائع عن الإهمال و التخريب الإداري الفعلي : "الهيمنة الفرنسية كانت أكثر كارثية على الآثار الجزائرية من القرون الطويلة للبربرية الإسلامية...". في سنة 1844، كان لومبيز (Lambèse) لا يزال سليما. و قبله كان قد ندد ليون روني (Léon Renier)، في "إرشاداته"، بـ "نظام المركزية الأثرية". و قد جعله (أي نظام المركزية الأثرية) البند 16 من قانون 1887 حول المحافظة على الآثار التاريخية ساري المفعول على الجزائر. فكل شيء محجوز للدولة. هذا القانون، الذي أتبع بإنشاء مصلحة العصور القديمة (Service des Antiquités)، وضع نوعا من التنظيم الجيد، على الأقل بالنسبة لآثار الفترة الرومانية.

وإن وجد محافظو الأرشيف و المكتبيون بعض الصعوبات في فرض وضعهم باعتبارهم مثقفين– موظفين، فقد فرض المختصون في الآثار و المتاحف أنفسهم بشكل أفضل. فالرائد ليون روني، ألكسندر بالو (Alexandre Ballu) الأول، ستيفان جيزال (Stéphane Gsell) هم جامعيون و لكن أيضا مفتشون في مجال العصور القديمة مثل جيروم كركوبينو (Jérome Carcopino). أوجين ألبرتيني (Eugène Albertini)، لويس ليسشي (Louis Leschi) الذي أدار بعده مصلحة العصور القديمة ، موريس ريغاس (Maurice Reygasse) ثم جون ديسي–لامار (Jean Dessus-Lamarre) في متحف الباردو، جون جلينا (Jean Glenat) في مصلحة العصور القديمة التي أنشأها س. جيزال بمساندة من دومنيك لوسياني (Dominique Luciani) . في الأخير، و بوهران منذ 1920، انتزعت ملفا فانسان (Malva Vincent)، تلميذة جيزال، و مساعدة كركوبينو، ألبرتيني، ليسشي، من تنتوان إدارة الرابطة الأركيولوجية مع رئاسة جمعية غيوم – بودي، الحضانة و اللجنة من أجل حق النساء في الانتخابات. لقد تم انتخابها نائب سيناتور سنة 1945.

إن الموظفين المقربون من مركز القرار، الموظفون الذين يشغلون أو شغلوا مناصب سلطة التي سمحت لهم بكتابة نصوص (تقارير و في الأخير كتب)، هم الذين نجحوا في فرض أنفسهم محاورين للجامعيين. فيبدو أن القنصل ألفونس روسو (Alphonse Rousseau) و المترجم ش. فيرود (.Ch Feraud) لم يعرفوا جامعة الجزائر و لا حتى المدارس العليا، بل تردد عليها كل من مديري مصلحة شؤون الرعايا (الأنديجان) دومنيك لوسياني و أوغستين بيرك (Augustin Berque).

الرضى عن النفس، المجلات و المؤتمرات

ما بقي إذا يتمثل أيضا و بخاصة في المجلات و وثائق المؤتمرات. لقد كان لكلية الحقوق وسائلها الخاصة للتعبير: "المجلة الجزائرية....."، و لكن الجمعية التاريخية الجزائرية (.S.H.A) هي التي منحت كلية الآداب ما لم تستطع يوما الحصول عليه: مجلة. ف "نشرة المراسلات الإفريقية" لماسكوري و باسات لم تعد سوى ذكرى بعيدة. الواقع هو "المجلة الإفريقية"، الواقع هو المدير لوسياني، المحافظ بايسان (Paysant)، الإداري بيرك، الأرشيفي إسكار، الناشر غربونال

(Carbonnel)[19]، المهندس بيفيا (Bévia) ... وهي ممرات لا بد من اجتيازها من أجل صناعة ذاكرة تاريخية. و لا يمكننا إلا أن نتفق مع فاني كولونا (Fanny Colonna) عندما تعتبر أن "درجة الاستقلال الذاتي عن الإديولوجيا المهيمنة و السلطة كانت منعدمة"[20].

هل كان بالإمكان أن تكون الأمور غير ذلك ؟ فعندما انعقد بالجزائر مؤتمر المستشرقين سنة 1905، تم تعيين روني باسات (René Basset) رئيسا، لوسياني نائبا للرئيس، و كان السكرتير العام إدموند دوتيه (Edmond Doutté) أو ج. إيفر(G. Yver)، و كان لكل المساعدين الآخرين مسؤوليات في إدارة التعليم و من بينهم رئيس مكتب السكرتير العام للحكومة. وقد تمَ توكيل مهام الشؤون المالية و المادية لموظفين اثنين في الحكومة العامة. و كان الأمر نفسه بالنسبة لكل المؤتمرات المنعقدة بمدينة الجزائر. فبموظفيها أو من دونهم، كانت الحكومة العامة تتدخل دوما ماليا و ماديا.

وقد حضر هؤلاء الموظفون الساموں في المؤتمر الدولي للجغرافيا الذي انعقد سنة 1899، دائما بمدينة الجزائر. سنة 1902 بمناسبة ألفية تأسيس وهران، نظم مؤتمر للجمعيات الأكاديمية (Sociétés savantes) في هذه المدينة.

و قد كان التتويج سنة 1905 مع تنظيم المؤتمر الدولي للمستشرقين و مؤتمر الجمعيات الأكاديمية لفرنسا. أصبحت مدينة الجزائر بذلك مركز إشعاع ثقافي. لقد عرفت جمعياتها حماسا كبيرا كما قدمت "المجلة الإفريقية"، مع كثير من الرضى الذاتي، عرضا كاملا عن الإنتاج الفكري الاستعماري.

لقد وقع هؤلاء المثقفين الاستعماريين دوما تحت تأثير حركة مزدوجة: إبراز قدرتهم على الإنتاج المحلي للمعارف، للمعنى و للمعايير من جهة و من جهة أخرى كسب الاعتراف و القبول في جامعة باريس.

وفي الثلاثينيات من القرن الماضي، ومع التعبئة من أجل أعياد الذكرى المئوية، تم تنظيم المؤتمر الدولي الخامس لعلم الآثار في الجزائر و المؤتمر الوطني الثاني للعلوم التاريخية. ولم يشارك الجزائريون لا في هذا المؤتمر و لا في ذاك. وفي المؤتمر الثاني، كان بال (Bel) و بيرس (Peres) هما الوحيدين اللذين ذكرا، من خلال محتوى مداخلتيهما، أن هذا المؤتمر منعقد فعليا في الجزائر.

و لم تكن الأمور أحسن في المؤتمر الأول للجمعيات الأكاديمية لإفريقيا الشمالية سنة 1935. ففي المؤتمر الثاني الذي عقد بتلمسان سنة 1936، قام كل من عبد السلام مزيان، عبد القادر محداد و عبد الحميد حميدو بتقديم مداخلات. أما المؤتمر الثالث الذي انعقد بقسنطينة، سنة 1937، فقد شارك فيه كل من رحماني سليمان، أبو بكر عبد السلام، عمار دهينة و أ. حميدو في حين انعقد المؤتمر الرابع و الأخير في الرباط سنة 1938.

---

[19] جديد أدولف جوردان(Adolphe Jourdan)، المطبعي الذي حل محله و الذي حل هو نفسه محل إيبوليت باستيد(Hyppolite Bastide) أول أكبر ناشر و مطبعي في مدينة الجزائر.

[20] In *Le mal de voir*, Paris, UGE, 1977 coll. 10/18.

خاتمة

عندما تتساءل فاني كولونا أيضا حول الأدبيات العلمية الاستعمارية و ترى "أن هناك سذاجة... عند المؤلفين الذين يجتهدون في إثبات وجود نزعة استعمارية في هذا العلم الاستعماري، و أن هناك سلطة في هذه المعرفة..." و أن "بعض المنتجين يمكنهم في بعض الظروف الخاصة إنتاج معرفة حقيقية..."[21] فإنها تطرح مشكلا جوهريا: كيف يمكن أن يكون موقفنا تجاه هذا الإنتاج ؟ أو لا يتربص بنا خطر الخطاب الوطنياتي؟ ألا ينتج الرفض المسبق لهذا الإنتاج عن أحكامنا المسبقة ؟ هل نحن قادرون على إتباع مقاربة علمية في دراسة هذه الظاهرة التاريخية ؟ الحصيلة أن هناك حقلا واسعا للبحث لا زال بكرا يمكنه أن يساعدنا، عندما يتم "حرثه" و بحثه، على فهم أمور عديدة حول مواقف سياسية و إيديولوجية، في الماضي و في الحاضر.

في الحقيقة، و مهما كانت المخاطرة أو المحاكمة السيئة التي يمكن القيام بها، فإن المشكلة التي تطرحها فاني كولونا تبقى أساسية : فيما يمكن لإنتاج معرفة حقيقية أن يتعارض مع وجود السلطة ضمن المعرفة ؟ يبدو أن فاني كولونا تجيب عن هذا السؤال في خاتمة مقالها: "كان بالإمكان – و يمكن– للمنتجين القريبين جدا من السلطة أن تكون لهم مصلحة في الحقيقة لأن ذلك من مصلحة السلطة". ما كان يصلح بالأمس بالنسبة لهذا "العلم الاستعماري" يصلح اليوم أيضا لـ "علم وطني" محتمل. فالمشكل مشكل سلطة و ليس فقط مشكل معرفة.

ترجمة: صورية مولوجي قروجي

[21] Colonna, Fanny, *op.cité*.